ISSN: 2090 – 0449 Online
Universal Impact Factor (UIF), 2015.
Impact Factor for Arabic Scientific Journals, 2016.

صورة المجتمع المصري خلال القرن الثامن عشر الميلادي في رحلة الوزير الإسحاقي الحجازية

د. محمد البَـغْيَالْ
أستاذ التعليم الثانوي التأهيلي
أستاذ متطوع التاريخ الحديث والمعاصر
جامعة عبد الملك السعدي – المملكة المغربية

مُلَخّصْ

يشكل وصف المجتمع في جوانبه المتعددة؛ السلوكية والأخلاقية والثقافية والدينية، أحد أبرز المواضيع التي اعتنى الرحّالة المغاربة بها وأولوها اهتمامًا كبيرًا في مشاهداتهم وأوصافهم، إلى حد أصبحت معه تلك النصوص الرِّحْلِيَّة أهم مصدر لدراسة المجتمعات الإنسانية، وإنتاج صور مختلفة عنها. ورحلة الوزير الإسحاقي الحجازية التي اعتمدناها في هذه الدراسة رصدت لنا صورًا متنوعة ومتباينة عن المجتمعات المغاربية والمشرقية التي زارها الرحّالة وقضى مدة من الزمن بين ظُهرانيها، وقد كان نصيب المجتمع المصري الأوفر حظًا على الإطلاق؛ نظرًا لطول المدة الزمنية التي قضاها الإسحاقي بمصر مقارنة مع باقي المناطق الأخرى، ونظرًا للاختلافات والتباينات الكبيرة بين المجتمع المصري "الآخر" والمجتمع المغربي "الأنا". إن ما يميز الصورة التي أنتجها الإسحاقي عن المجتمع المصري خلال القرن هو شموليتها لمختلف الجوانب الأخلاقية والسلوكية والدينية والصوفية والعلمية، كما أن طريقة تقديم تلك الصورة غلب عليها طابع الجرأة التي تفتقد إلى لباقة المجاملة وتصل في معظم الأحيان إلى التجريح والتقريع.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث:	٠٨	يوليو	٢٠١٥
تاريخ قبـول النشـر:	١١	ديسمبر	٢٠١٥

كلمات مفتاحية:
تشرب القهوة، المحمل المصري، كسر النيل، أدب الرحلات

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:
محمد البَغْيَالْ. "صورة المجتمع المصري خلال القرن الثامن عشر الميلادي في رحلة الوزير الإسحاقي الحجازية".- دورية كان التاريخية.- العدد الرابع والثلاثون؛ ديسمبر ٢٠١٦. ص٧١ – ٨٢.

مُقَدِّمَةْ

تعتبر كتابة الرحلة تقليدًا عريقًا في التراث الأدبي المغربي، دأب عليه علماء المغرب وأدباؤه، من باب تخليد رحلاتهم وما ميزها من نشاط وحركية في المجال والثقافة والعلوم، ومن باب الإفادة وتقديم المعلومات المختلفة عن المناطق والبلدان والمجتمعات التي زاروها وحلوا بها، أو تلك التي شكلت خط سير رحلتهم نحو الوجهة المقصودة. ومن هذا المنطلق فقد تعددت دوافع وأهداف كتابة الرحلة الحجازية خلال القرن الثامن عشر، وفي مقدمتها الشوق إلى الحج وزيارة الأماكن المقدسة، وهو شوق "يؤججه عنصر البعد عن هذه البقاع الطاهرة، وانزواء المغرب في الجناح الغربي من العالم الإسلامي البعيد عنها"،[1] إلى جانب لقاء العلماء والجلوس إلى حلقاتهم والأخذ عنهم وسؤالهم الإجازة، والتعريف بالمسالك والممالك، ووصف الطرق وظروفها، والمجتمعات وعادتها بقصد الإفادة، وشرح المناسك بكيفية تطبيقية.

وقد تكون الرحلة تقريرًا مفصلاً لنشاط الراحل أو الوفد الذي ينتمي إليه كاتب الرحلة، كما هو الشأن بالنسبة لرحلة الإسحاقي، الذي دَوَّنَهَا بعد الأَوْبَةِ من الحج بأمر من السلطان المولى عبد الله الذي أراد أن يخلد ذكرى حج والدته الأميرة خناثة بنت بكار المغافري، فالرحلة كانت عبارة عن وفادة رسمية تضم أم السلطان ونجله الأمير سيدي محمد مع نخبة من العلماء والفقهاء يتصدرهم الوزير الإسحاقي، وجاءت في ظرفية سياسية

حرجة بالنسبة للمولى عبد الله الذي كان يسعى إلى ترسيخ قدمه في الحكم وإثبات شرعيته فيه، ولعل ذلك ما حمل أحد الباحثين على اعتبار أن رحلة الإسحاقي تتجاوز الأهداف الدينية المتمثلة في أداء فريضة الحج وزيارة قبر النبي عليه الصلاة والسلام، إلى تحقيق أهداف سياسية واستراتيجية تتعلق بالبحث عن الشرعية من قبل علماء وحكام بلدان المغارب والشرق العربي الإسلامي في مواجهة خصومه من إخوته المتنافسين معه على العرش.[٢]

رغم أن الإسحاقي كان مكلفًا بتسجيل وتتبع نشاط الأميرة خناثة والدة السلطان المولى عبد الله خلال رحلتها هاته، فإن ذلك لم يمنعه من تقديم صور متنوعة ومتباينة عن المجتمعات التي مرَّ بها الركب أو نزل، حيث نجده يمزج بين أسلوبي الذم والمدح عندما يتعلق الأمر بالجوانب الأخلاقية والسلوكية، ويعبر عن مواقفه بجرأة كبيرة من بعض العادات والتقاليد الاجتماعية ببعض المناطق التي زارها، كما رصد لنا الجوانب الدينية والثقافية والتعليمية بتلك البلدان. والملاحظ أن؛ الإسحاقي ركز كثيرًا على المجتمع المصري في وصفه لمظاهر الحياة الاجتماعية في الأقطار العربية، ولعل ذلك راجع إلى الاختلافات الجوهرية بين هذا المجتمع من جهة والمجتمع المغربي من جهة ثانية، إن على مستوى "درجة الحفاظية" والتمسك بمبادئ الدين وقيمه الأخلاقية، أو على مستوى العادات والتقاليد المختلفة، فوصفه لذلك المجتمع يعكس نظرة الفقيه والعالم المغربي المحافظ الذي لا يقبل التنازل عن القيم الأخلاقية قيد أنملة، ويستنكر البدع والاعتقادات الباطلة والفاسدة وينتقدها بشدة.

ولكن قبل الشروع في تحليل عناصر الصورة التي أنتجها الإسحاقي عن المجتمع المصري، يجدر بنا - كخطوة منهجية أولى- التعريف بصاحب الرحلة والوقوف على أهم المؤثرات السوسيو- ثقافية والسياسية التي أسهمت في تكوين شخصيته وبالتالي انعكست على نظرته للأشياء وللآخر المغاير، باعتبار "الصورة - في إحدى أبعادها - إعادة إنتاج ذهنية عبر المخيلة لتجربة ذاتية"،[٣] فالوعي بالآخر، أو بالأحرى تصويره، لا يتم إلا في ظل أفكار وأنساق إيديولوجية، مصدرها التباين بين الأوطان والثقافة من جهة، وسطوة الشرط الموضوعي من جهة ثانية.[٤]

أولاً: ترجمة الإسحاقي

ارتبطت ترجمة الإسحاقي -ارتباطًا عضويًا- بالرحلة التي دوَّنَها بعد عودته من الحجاز، والتي كانت بمثابة تقرير رسمي قدمه للسلطان المولى عبد الله بن إسماعيل عن رحلة والدته الأميرة خناثة بنت بكار المغافري وحفيده الأمير سيدي محمد بن عبد الله. فلولا تلك الرحلة -التي تُعَدّ الأثر الفكري الفريد للإسحاقي- لظلت شخصية هذا الرجل مجهولة بالنسبة إلينا، فحتى المصادر والدراسات التاريخية التي ترجمت له، لم تقدم ما يكفي من المعلومات والمعطيات التي تسعف الباحثين في الوقوف على المؤثرات السوسيو- ثقافية والسياسية التي كان لها كبير الأثر في تشكيل شخصية الرجل وبلورة مواقفه واتجاهاته الفكرية والسياسية. فالمصادر تختلف حتى في ضبط اسمه الكامل وتحديده، فالقادري في نشر المثاني يُعَرِّفُه بعبد القادر الجيلالي السِّحاقي نسبة إلى آيت إسحاق، ويذكر أنه يُكَنَّى بأبي محمد[٥]، والاسم نفسه والكنية أثبتها صاحب دليل مؤرخ المغرب الأقصى عند حديثه عن رحلة المُتُرْجَم مع السيدة خناثة[٦]، بينما يُسمِّيه ابن زيدان في المنزع اللطيف بالشرقي الإسحاقي ويُكَنِّيه بأبي الفضل، ويعرفه الجريري في شرح الشمقمقية بالشرقي الإسحاقي.[٧]

وإذا رجعنا إلى رحلته التي تُعَدّ الأثر الفكري الفريد للإسحاقي، كما سبقت الإشارة إلى ذلك، فإننا نقف على اسمه حيث ذكر بأبي محمد سيدي الشرقي بن محمد الإسحاقي،[٨] بينما تمت الإشارة إليه في وثيقة التحبيس المرفقة بنص الرحلة، بسيدي الشرقي الإسحاقي.[٩] ويمكن الوقوف على اسمه أيضًا في الإجازات العلمية التي حصل عليها من قبل علماء المشرق، وفي مقدمتهم الشيخ محمد بن أحمد عقيلة الذي أجازه بالحديث المسلسل وبالحديث المسلسل بالمصافحة، وفي كلتا الإجازتين يسميه بمحمد الشرقي الإسحاقي،[١٠] أما الشيخ محمد الطبري إمام المقام الخليلي، فقد سماه في إجازته له بمحمد الشرقي بن محمد الإسحاقي المغربي المالكي،[١١] وسماه الشيخ أبو الفضل محمد تاج الدين بن عبد المحسن الحنفي في إجازته له بالحديث المسلسل بالأولية بمحمد الشرقي الإسحاقي المغربي المالكي.[١٢]

رغم الخلاف حول اسم هذا الرحالة المغربي وما اكتنفه من تأويل وتفسير، فإن هناك إجماع على تسميته بالشرقي الإسحاقي داخل المغرب وخارجه، كما أن الاسم الذي جاء مثبتا في الإجازات العلمية التي حصل عليها من المشرق، وهو محمد الشرقي الإسحاقي، أو محمد الشرقي بن محمد الإسحاقي، هو على الأرجح الاسم الكامل لرحالتنا، وما سوى ذلك فلا يعدو عن كونه ألقاب وكنى لُقِّبَ بها، ولعل ما يدعم هذا الافتراض هو أن الشخص الذي يطلب الإجازة من عالم أو شيخ، فمن البديهي أن يعرفه باسمه، ومما لا شك فيه أن الإسحاقي هو الذي عرف باسمه لدى مُجيزيه من علماء المشرق.

إذا كانت المعلومات المتوفرة عن المراحل التي قطعها الإسحاقي في مسار الدراسة والتكوين شحيحة جدًا، فماذا بشأن مساره المهني ومشوار خدمته في سلك المخزن؟

تشير المصادر التاريخية -باقتضاب شديد- إلى خدمة الإسحاقي في سلك المخزن، فقد تولى خطة الكتابة والوزارة في عهدي كل من السلطانين المولى إسماعيل وابنه المولى عبد الله، وهي من الخطط المخزنية التي اختص بها العلماء، إذ كان تكوين الكتاب يجمع بين العلوم الشرعية كالفقه والتفسير والحديث، والعلوم اللغوية كالنحو والبيان، والعلوم الإنسانية

كالتاريخ والسير، بالإضافة إلى الأدب وخاصةً الشعر. كما تتحدث المصادر عن مشاركة الإسحاقي في الحملة التأديبية التي قادها السلطان مولاي إسماعيل لإخماد تمرد جبال فازاز، وذلك سنة (١١٠٤ هـ/ ١٦٩٢م)،[١٣] ويذكر التازي أن الإسحاقي كان من ضمن الشهود على عقد الموالاة الذي تم بين الأميرين الأخوين أحمد وزيدان، والذي أمره به السلطان مولاي إسماعيل في منتصف رمضان من سنة (١١٣٧ هـ/ ١٧٢٥م).[١٤] إذا كان المؤرخون وأصحاب التراجم لم يتجاوزوا في تعريفهم بالإسحاقي بضعة أسطر، فكيف يمكن استثمار نص رحلته في تسليط الضوء على جوانب متنوعة من شخصية هذا الرجل؟

يكشف لنا نص الرحلة النقاب عن مؤهلات الإسحاقي وقدراته في عدة مجالات علمية كالفقه والحديث والسيرة النبوية وعلوم اللغة والتاريخ والأنساب، فضلاً عن ميوله الأدبي الذي يبدو جليا من خلال الأسلوب الذي صاغ به رحلته، ومن خلال اختياراته الشعرية التي تعبر عن ذوق رفيع وإحساس مرهف. كما يُسعفنا نص الرحلة في إبراز البعد الصوفي في شخصية الإسحاقي، من خلال حرصه على زيارة قبور ومشاهد الأولياء والصالحين بنية التبرك، ومن خلال مواقفه من بعض الكرامات الصوفية الواردة في الرحلة. ففي مجال الفقه يزخر نص الرحلة بالمواقف والنقاشات والجدل الفقهي؛ حيث استعرض الإسحاقي مجموعة من المسائل الفقهية الخِلافية، وأبرز مختلف مواقف علماء المذهب المالكي بشأنها، ولعل من أهم تلك المسائل: مسألة البَغِيِّ إذا تابت من بِغَائِها، ومسألة الصلاة في العَذِرَة، ومسألة شراء وكراء دور مكة المكرمة، والتي أصدر فيها فتوى جامعة مانعة بطلب من الأميرة خناثة.

إلى جانب براعته في علم الفقه، شكل علم الحديث وروايته جزءً كبيرًا من اهتمام الإسحاقي وانشغاله العلمي؛ فهو يصرح في رحلته بأنه كان مُكِبًّا على قراءة صحيح البخاري -بمعية عدد من الطلبة والفقهاء المغاربة- على طول طريق الرحلة، حيث كان يتولى الإسحاقي سرده عليهم،[١٥] وقد دفعه اعتناؤه بهذا الكتاب -الذي يُعَدّ أصح كتب الحديث- إلى استعارة جزء من شرح القسطلاني على البخاري المسمى "إرشاد الساري إلى شرح صحيح البخاري" من السيد محمد بن منصور الذي لقيه بتوزر، ثم رده إليه عندما حل بطرابلس.[١٦]

كما يظهر اهتمام الإسحاقي بعلم الحديث من خلال نوعية الإجازات العلمية التي حصل عليها في المشرق، فهي كلها في رواية الحديث، باستثناء إجازة الشيخ محمد الطبري التي تُعَدّ إجازة عامة، والملاحظ أن؛ الإسحاقي هو مَنْ كان يسأل مُجيزيه الإجازة؛ فقد سأل الشيخ محمد بن أحمد عقيلة الإجازة بالحديث المسلسل "بأني أحبك فقل: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك"[١٧]، ثم سأله الإجازة بالحديث المسلسل بالمصافحة[١٨]، كما سأل الشيخ أبي الفضل محمد بن تاج الدين الحنفي مفتي الحنفية بالحرم المكي والقائم بوظيفة الكتب الستة الحديثية، الإجازة بالحديث المسلسل بالأولية، وهو حديث "الراحمون يرحمهم الرحمان تبارك وتعالى، ارحموا مَنْ في الأرض يرحمكم مَنْ في السماء"[١٩]، فأجازه بذلك وبرواية ما يجوز عنه من الكتب الستة.

يستخلص من هذه الإجازات العلمية أيضًا، أن الإسحاقي كان منفتحًا على أصحاب المذاهب الفقهية الأخرى، ولم يكن متعصبًا لمذهبه المالكي، فطلب العلم والمعرفة هما ضالته أنَّ وجدها أخذ بها، كما يستشف منها أن الإسحاقي -من خلال سؤاله العلماء بالمشرق، وتطلعه للأخذ عنهم والتفقه بهم- مثالٌ لطالب العلم المتواضع، وهذه صفات لا يتحلى بها إلا مَنْ كانت له قدم راسخة في العلم.

كما تألق الإسحاقي في ميدان السيرة النبوية وسطع نجمه، ويتجلى ذلك في اعتماده على كتب السير "كسيرة ابن إسحاق"، و"الروض الأُنُف" للسُّهيلي، الذي كان على اطلاع واسع بمضمونه، حيث نجده يروي منه بشكل ارتجالي كما صرح بذلك عند إيراده لحديث إكرام الرسول (ﷺ) لصديقة زوجته خديجة (رضي الله عنها)، والتي أثارت غيرة زوجته عائشة (رضي الله عنها)، فختم كلامه قائلاً: "انتهى منه بالمعنى وبعضه باللفظ، إذ لم يحضرني الكتاب الآن"،[٢٠] وعند ذكره لقصة الحجر الأسود وبناء الكعبة، اعتمد على سيرة ابن إسحاق ومشارق الأنوار للقاضي عياض.[٢١] إلى جانب الفقه والحديث كان الإسحاقي مطلعًا على علم الكلام ومُلِمّاً به، حيث كان يحفظ كتاب "شرح ابن السعد على العقائد النسفية" لسعد الدين التفتازاني كما يتضح ذلك من كلامه "ورغبت الشيخ علي الحنفي المذكور أن أقرأ عليه شرح السعد على العقائد النسفية، لما سمعت أنه قرأها عام أول قبل وصولنا".[٢٢]

ليس بغريب على كاتب محترف من طينة الإسحاقي، المشاركة التامة في مختلف الفنون الأدبية من لغة ونحو وشعر ونثر، والتسلط عليها بفهم ثاقب وعقل راجح منفتح على كل المعارف، ومتجول في حدائقها الغناء تجول العالم الموسوعي المتبحر الآخذ بناصية الأدب، فقد كان حريصًا على لقاء الأدباء ومجالستهم وتَطَارَحَ شعره معهم، ومِمَنْ لقيه الإسحاقي في رحلته، الأديب التازي عبد القادر بن محمد المصيني الذي أنشده قصيدة من نظمه في رثاء ولد له[٢٣]، وفي طرابلس التقى بعدد من الأدباء المغاربيين من أمثال الفقيه السيد محمد التونسي والأديب السيد محمد بن مقيل الطرابلسي والفقيه السيد محمد بوقلال المغربي وأخيه السيد أحمد، والأديب السيد محمد الشريف الفرجاني الذي أنشده أبياتًا شعرية في مدحه.[٢٤] وفي مصر اجتمع الإسحاقي بعدد من الأدباء والشعراء وتطارح معهم الشعر "وتذاكرنا الكتابة التي إذا أخطأها الخط صارت كآبة".[٢٥]

وفي مكة المكرمة قصد الإسحاقي منزل الفقيه الأديب الشيخ محمد بن أحمد عقيلة المكي متمثلاً قول بعضهم: [الطويل]

بِبَابِكَ يَا مَوْلَى الْكِتَابَةِ كَاتِبٌ
أَتَاكَ بِقَلْبٍ مِنْ أَسَى الْبَيْنِ مَفْجُوع
وَحَاجَتُهُ تَقْبِيلُ يُمْنَاكَ إِنَّهَا
تُؤَمِّنُ مِنْ خَوْفٍ وَتُسْمِنُ مِنْ جُوع

فما كان من الفقيه المكي إلا أن ارتاح لهذا الشعر الذي يعبر عن تواضع الأديب العالم، وفرح به وهَشَّ وبَشَّ ورَشَّ مُزْنَ إكرامه وطَشَّ، فأطلع الإسحاقي على جملة من مؤلفاته ومصنفاته الكثيرة.[٢٦]

وفي الحرم الشريف التقى الإسحاقي بالأديب الوجيه السيد عبد الله بن يحيى أفندي بن جعفر الواعظ، الذي أنشده قصيدة مطولة في مدح السلطان المولى عبد الله و استودعه إياها، فأثبتها الإسحاقي كاملة في رحلته خشية الضياع.[٢٧] كما اِلتقى هناك أديب العلماء وعالم الأدباء -على حد تعبيره- الشيخ زين العابدين بن سعيد المنوفي، فدعاه لحضور مأدبة طعام أقامها على شرفه وشرف أعيان الركب المغربي، وكانت المناسبة مواتية لإطلاق العنان لملكة تقريض الشعر.

وفي مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم، زار الإسحاقي الأديب الشيخ محمد بن سعيد بن عبد الكريم الأنصاري الخزرجي المدني بداره، وهي دار أبي أيوب الأنصاري، فأنشده قصيدة من نظمه في مدح سيدنا عثمان (رضي الله عنه).[٢٨] كما التقى الإسحاقي بالفقيه الأديب السيد عبد الله بن عبد الكريم العباسي الحنفي مفتي المدينة المنورة سابقًا والخطيب والمدرس بحرم خير الأنام، والذي أنشده قصيدة من نظمه في مدحه، هذه بعض أبياتها:[٢٩] [الخفيف]

يَا إِمَامًا عَلَا سِيمَاتِ وَسِيمَهْ
وَهُمَامًا غَلَا صِفَاتٍ وَشِيمَهْ
وَأَخـاً لِلْعُلَـى وَتَاجَ بَهَاءٍ
وَكَمَالٍ حَوَى الطِّبَاعَ السَّلِيمَهْ
هُوَ ذُخْرِيَ الشَّرْقِيُّ دَامَ سَنَاهُ
شَكَـرَ اللهُ فَضْـلَهُ وَعُـلُومَـهْ

وفي مجال التاريخ، اقتبس الإسحاقي معلوماته التاريخية عن البلدان والمناطق التي تحدث عنها من مصادر تنوعت بين كتب التاريخ وكتب الرحلات، فبالنسبة للنوع الأول نجده يعتمد عند حديثه عن تاريخ تونس كتاب "تاريخ إفريقية والمغرب" للرقيق القيرواني، وعن تاريخ مصر على كتاب "فتوح مصر وأخبارها" لابن عبد الحكم، و"فضائل مصر المحروسة" لابن الكندي، و"حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة" للسيوطي، و"فضائل مصر وأخبارها وخواصها" لابن زولاق، و"نشق الأزهار في عجائب الأقطار" لابن إياس الحنفي. وعند حديثه عن تاريخ مكة والبيت الحرام نجده يعتمد كتاب أبي الوليد الأزرقي المسمى "أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار"، وبالنسبة لتاريخ المدينة اعتمد كتاب "خلاصة الوفا بأخبار دار المصطفى" للسمهودي، وكتاب "تاريخ المدينة المنورة" لابن شبة.

أما بالنسبة للنوع الثاني -أي كتب الرحلات- نجده يعتمد بشكل كبير عند تعرضه لتاريخ تونس وليبيا على "رحلة التجاني" لأبي عبد الله بن محمد بن أحمد التجاني، وقد لاحظ الدكتور عبد الهادي التازي أن الإسحاقي متتبع غير متحر فيما ينقل، فقد نقل عن التجاني قوله "وأهل طرابلس يتحدثون أن النصارى ملكوا بلدهم مرة أخرى وذلك ليس بصحيح، وإنما أخذها النصارى من حين الفتح الإسلامي هذه الأخذة فحسب"[٣٠]، وهو يخالف ما اشتهر عند أهل طرابلس من أن بلادهم أخذت مرة ثانية، وإذا كان هذا التصحيح من لدن التجاني الذي زار ليبيا ما بين سنتي (٧٠٦ هـ)، و(٧٠٨هـ) صحيحًا، فإنه بالنسبة للإسحاقي غير صحيح، لأن طرابلس أخذت من طرف صاحب جنوة سنة (٩١٦ هـ/ ١٥١٠م)، ومكثت تحت يد النصارى -حسب ابن غلبون- (٤٣ سنة) أو (٤٥ عامًا)،[٣١] وجانب الإسحاقي الصواب مرة ثانية عند ذكره أن افتتاح طرابلس على يد عمرو بن العاص كان سنة ٢٢ هـ، والصواب أن حصار المدينة هو الذي كان في تلك السنة، أما الفتح فقد كان سنة (٢٣ هـ/ ٦٤٣ م).[٣٢] بالإضافة إلى رحلة التجاني اعتمد الإسحاقي على رحلات أخرى كرحلة العبدري، ورحلة ابن جبير، ورحلة البلوي المسماة "تاج المفرق في تحلية علماء المشرق"، و"الرحلة العياشية" لأبي سالم العياشي.

يبدو أن الإسحاقي كان حريصًا على توثيق الأخبار والمعلومات التي ساقها عن الأقوام والبلدان التي حل بها، من باب الأمانة العلمية، حتى وإن خانته دقة التحري والتمحيص في بعض الأحيان، إلا أن ذلك لا يعطينا الحق في الحكم عليه بأنه غير ضليع في مجال التاريخ كما ذهب إلى ذلك الدكتور عبد الهادي التازي.[٣٣]

١/١- شيوخه:

يعتبر الدكتور عبد الهادي التازي أن الإسحاقي من جملة المتخرجين من جامع القرويين[٣٤]، إلا أنه لم يذكر أسماء الشيوخ الذين أخذ عنهم في مدينة فاس، وبالعودة إلى ثنايا الرحلة -التي تظل المصدر الرئيس في التعريف بالإسحاقي والترجمة له- نجده يصرح بأن العلامة أبو علي الحسن اليوسي شيخه[٣٥]، وفي سياق حديثه عن تراجع العلم بالبلاد المشرقية وفي مصر على وجه الخصوص يشير الإسحاقي إلى شيخه اليوسي ولكن هذه المرة بواسطة بعض أصحابه قائلاً: "وأخبرني بعض أصحابنا أنه سمع شيخنا أبا علي الحسن اليوسي، بعدما رجع من حجته، يقول: ما بقي في البلاد المشرقية من تشد إليه الرحال في طلب العلم، وما راء كمن سمع".[٣٦]

والغالب أن هذا التلقي كان في السنوات الأولى من دراسة الإسحاقي، فلقد نزح الحسن اليوسي عن الزاوية الدلائية سنة ١٠٧٩هـ بعد قضاء المولى الرشيد عليها، وحينئذ توجه إلى فاس، ولكنه لقي عنتا من بعض طلبتها، الشيء الذي دفعه إلى مغادرتها والتوجه إلى البادية، حيث أصبحت مجالسه قبلة للطلاب من مختلف القبائل. وسواء كان تلقي الإسحاقي أيام إقامة اليوسي بفاس أو بعدها فإن ذلك لا يتصور إلا أيام الشباب، لأن اليوسي توفي سنة ١١٠٢ هـ والرحلة التي قام بها الإسحاقي كانت سنة ١١٤٣هـ، فبين الرحلة ووفاة اليوسي إحدى وأربعون سنة، وأيام التلقي -يقول الأستاذ الدباغ- إنما كانت بين سنتي ١٠٧٩ هـ و ١١٠٢ هـ.[٣٧] وأشار الإسحاقي أيضًا إلى الفقيه الأديب السيد محمد بن زاكور الفاسي المتوفى سنة ١١٢٠ هـ عندما اقتبس منه بيتين شعريين أنشدهما في مصر عند لقائه لبعض أدبائها، مشيرًا إلى أن ابن زاكور صاحبه[٣٨]، ومعلوم أن هذا الأخير تلقى عن اليوسي أيضًا.

إذا كانت المعلومات عن شيوخ الإسحاقي في المغرب قليلة وشحيحة، فعلى النقيض من ذلك نجده يذكر أسماء العلماء والفقهاء الذين أخذ عنهم وتدبَّجَ بهم في المشرق (في مكة) وإجازاتهم له، وهم وفق الترتيب الذي ذكروا به في الرحلة كالآتي:

- الشيخ سيدي عمر البار الباعلوي الحسيني، لقيه الإسحاقي وأخذ عنه بن أخته الفقيه العربي بن محمد المكناسي بعض الأوراد على طريقة تلقين الذكر.

- الشيخ سيدي محمد بن أحمد عقيلة المكي المتوفى سنة ١١٥٠ هـ، تلقى منه الإسحاقي الذكر ولبس الخرقة على سنن الطريقة القادرية الجيلية أو الجيلانية، وأجازه بالحديث المسلسل والحديث المسلسل بالمصافحة.
- الشيخ محمد الطبري المتوفى سنة ١١٧٣ هـ، أجازه إجازة عامة.
- الشيخ أبو الفضل تاج الدين الحنفي المتوفى سنة ١١٤٩ هـ، أجازه بالحديث المسلسل بالأولية.
- الفقيه عبد الله بن يحيى أفندي بن جعفر الواعظ.
- الشيخ زين العابدين بن سعيد المنوفي المتوفى سنة ١١٥١ هـ.
- الشيخ تاج الدين بن عارف المنوفي.
- الشيخ عبد الله السكندراني الضرير.

١/٢- وفاته:

اختلفت أقوال المؤرخين حول تحديد تاريخ وفاة الإسحاقي؛ فالقادري وابن سودة -في ترجمتهما للإسحاقي- لا يقدمان تاريخًا مضبوطًا لوفاته حيث يرجحان أن توفي في المغرب أي بعد عودته من الحج، بعد سنة ١١٥٠ هـ[٣٩]، وهو التاريخ الذي تبناه جل الباحثين الذين خصوا الإسحاقي ورحلته بالدراسة[٤٠]، وبالمقابل نجد ابن زيدان يقدم لنا تاريخًا دقيقًا لوفاته ذاكرًا أنه توفي قرب المغرب ليلة الاثنين ١٢ شعبان سنة ١١٦٣ هـ[٤١]، إلا أنني أستبعد هذا التاريخ لسبب بسيط هو أن تاريخ تحبيس السلطان المولى عبد الله لرحلة الإسحاقي كان سنة ١١٥٦ هـ أي بعد وفاة والدته الأميرة خناثة بسنة واحدة، وتشير تلك الوثيقة إلى أن المجلد الذي تم تحبيسه على جامع القرويين كان مكتوبًا على أول ورقة منه "رحلة العالم الأجل الكاتب المبجل سيدي الشرقي الإسحاقي تغمده الله برحمته"،[٤٢] مما يعني أن الإسحاقي وقتئذ كان قد خلف الدنيا وراء ظهره وانتقل إلى الدار الآخرة.

ثانيًا: صورة المجتمع المصري خلال القرن الثامن عشر الميلادي

دخل الركب المغربي إلى مصر القاهرة يوم الخميس ١٩ شوال سنة ١١٤٣ هـ/ ٢٦ أبريل ١٧٣١م، ودامت مدة إقامته بها أسبوعًا واحدًا فقط، لكن بعد الانتهاء من قضاء مناسك الحج وزيارة قبر الرسول (ﷺ)، نزل الركب المغربي - في طريق عودته - على مصر مرة أخرى، وقضى بها ما ينيف عن شهر من الزمن، رغبة في زيارة ما يتوجب زيارته من المشاهد العظيمة بها، وقد كانت هذه المدة كافية للإسحاقي حتى يقف على أحوال المجتمع المصري عن كثب، وينقل إلينا الصورة التي أنتجها حوله.

١/٢- انتقاد بعض المظاهر الأخلاقية والسلوكية:

كان نصيب المجتمع المصري من انتقادات الإسحاقي الأوفر على الإطلاق، فقد ركز على رصد صور ومشاهد مختلفة عن الأمراض الاجتماعية المنتشرة بهذا المجتمع معبرًا عن استنكاره وشجبه لها بطريقة صريحة مباشرة، أو بطريقة غير مباشرة في قالب سخري هزلي. واعتمد في وصفه لأخلاق أهل مصر على ما ذكره ابن إياس الحنفي في كتابه "نشق الأزهار في عجائب الأقطار"، حيث قال: "من أخلاق أهل مصر اتباع الشهوات، والانهماك في اللذات، والاشتغال بالمتنزهات، والتصديق بالمُحالات، وعندهم الملق والبشاشات، وفيهم اللطافة وقلة الغيرة، وعندهم الجبن والخوف، والقنوط، وقلة الصبر على الشدائد، وعندهم المكر والحيل والخداع، والتحاسد، والكذب، وذم الناس، والسعي إلى السلطان، ومنهم من خصه الله بالفضل، ويقال: أن الأُسُود إذا دخلت مصر ذلت ولم تتناسل بها، وكلابها أقل جرأة من كلاب غيرها من سائر البلدان، وكذلك سائر ما فيها أضعف من نظيره في بقية البلدان، ودخل أبو العتاهية مصر فلما رجع قيل له: كيف رأيت مصر؟ فقال: ثلثها كلاب، ومثلها دواب، ومثلها تراب، فقيل له: وأين الناس؟ فقال: في الثلث الأول"،[٤٣] وكأن الإسحاقي لم يكتف بهذا الوصف الشنيع الذي كله تجريح وتقريع، فأضاف إليه قائلاً: "وهي لهذا العهد، أمراؤها مماليك وعلمائها صعاليك، دخلناها فقاسينا بها تعب الغبار وركوب الحمار... والحرص على الدنيا والتملق عليها ما فيه عيب عندهم ولا يحتشم منه صغير ولا كبير، وتجد الرجل ذا همة ولباس وهو يتملق بين يديك ويخدمك إذا رجا أن ينال منك

فلسًا واحدًا... والغش عندهم خُلُقٌ جُبِلوا عليه، يغشون كل شيء، ولهم عليه قدرة وضروب من الحيل، وبلغ من غشهم أنهم يغشون الحليب في ضروع أمهاته".[٤٤]

يبدو من خلال هذا الوصف تحامل الإسحاقي على أهل مصر وسخطه الكبير عليهم، ولعل ذلك يجد تفسيره فيما وقع له معهم، حيث يذكر أنهم حين نزلوا في القاهرة، اكتروا دارا قرب جامع الأزهر من فقهاء يُدَرِّسُونَ بالجامع المذكور يقال لهم أولاد شاهين، وحين عزموا على السفر إلى الحجاز أرادوا التخفيف من حوائجهم حتى يرجعوا، فأودعوها إياهم، وكتبوا عقدا يثبت نوع وعدد الأشياء المودعة بالتفصيل، ودفعوا لهم ثمن علف البهائم وأجرة من يقوم بها لمدة مئة يوم، فماذا حدث في وقت مغيبهم عن مصر؟ يجيب الإسحاقي بمرارة كبيرة: "فعمدوا إلى حوائجنا فلبسوها حاجة حاجة، حوائج النساء لبسها النساء وحوائج الرجال لبسها أولئك الملاعين حتى أحالوها عن هيئتها وأخلقوا جدتها وبهجتها، وعمدوا إلى البهائم فسافروا عليها إلى سيدي أحمد البدوي نفع الله به غيرهم، ولما رجعوا من ذلك السفر استعملوها في خدمة التراب من غير برادع حتى دبروها وسلخوا ظهورها"[٤٥]، وعندما رجع الركب المغربي إلى مصر، توجه الإسحاقي وأصحابه إلى دار أولاد شاهين حيث الموضع الذي اكتروه "وجدناه اتخذوه مراحا للغنم ومأوى لها، فأغضينا الجفون على القذا خوفًا منا إذا اكترينا من عند غيرهم أن ينكرونا فيما أودعنا عندهم، ولا ينفع معهم لا عقد ولا زمام ... فوجدنا البهائم في سياق الموت، أما ثنتان فضاعتا، وأما البواقي فكنا نعالجها مدة إقامتنا بمصر نحوا من شهر، فحصل بها بعض الانتفاع"[٤٦]، فماذا كان رد فعل الإسحاقي وأصحابه؟ "وكنا أردنا الكلام معهم في ذلك عند حكام البلد، فقيل إن ذلك لا يفيد شيئًا، فسكتنا وفوضنا الأمر إلى الله، فهذا فعل الفقهاء المدرسين من أهل هذه القرية!".[٤٧]

إن هذه الواقعة لتعدّ سببًا كافيًا ليسلط المرء جم غضبه وحنقه على أهل ذلك البلد الذين ما تركوا خسيسة ولا قبيحة من الصفات إلا واتصفوا بها كما يتبين ذلك من خلال وصف الإسحاقي، والغريب في الأمر أن المصريين يخصون بهذه المعاملة السيئة المغاربة خاصة، فهذا أحد المصريين قتل رجلاً من المغاربة، فألقي القبض عليه، وما لبث أن دفع الدية للأتراك حتى أطلقوا سراحه "وبرحوا على المغاربة لا يقعد أحد منهم في السوق، وسلطوا عليهم جلاوزتهم حتى شغلوهم في أنفسهم عن الكلام على المغربي، فطل دمه وذهب ضلالا، وهكذا وليقس ما لم يقل".[٤٨]

ومن عجيب طمعهم وتملقهم استرزاقهم بالعلم، يذكر الإسحاقي توافدهم عليه بعدما سمعوا أنه من جملة كتاب السلطة في المغرب، منتحلين صفة العلم، حيث دخل عليهم ذات يوم شيخ منهم وسلم وهش وبش من تلقاء نفسه، ثم أخذ في الدعاء لهم "ثم أخرج قصيدة امتدحنا بها هي إلى الهجو أقرب"[٤٩]، ومن أعجب غرائب هذا الشيخ أن حماره الذي جاء عليه يركبه محترف اللصوصية، ذلك أنه لما رأى بردعة صغيرة وسط الحوش "قبض عليها بأسنانه وقصد باب الدار خارجًا بها، فخرج الشيخ وراءه يجري حافيا فأدركه قُرُبَ من الخروج إلى شارع الطريق، فرده ورد البردعة، فأغربنا في الضحك، وما عرفنا من أيهما نعجب، من الشيخ أم من حماره! والناس يقولون: قلب الجواد على قلب مولاه".[٥٠] ولعل هذا الفعل الذي ارتكبه الحمار إنما يدل على سوء معاملته من قبل صاحبه وعدم رفقه به، وهو سلوك سجله الإسحاقي على أهل مصر قائلاً: "ولا تجد أقل شفقة ورحمة للبهائم والجمال من أهل هذه البلدة، وقد رأينا من جَمَّالَتِهِمْ في طريق الحجاز في هذا المعنى ما قضينا منه العجب، ترى الرجل منهم يحمل على الجمل حتى ما يظهر منه إلا عنقه، ويحمل عليه وهو بارك على الأرض ثم يقيمه ويطلع على ذروته ويبني على ظهره ما شاء من المتاع الذي يحمله، ولا تلحقه فيه رأفة ولا شفقة".[٥١] فالرفق بالحيوان والاعتناء به أمر لا محل له من الإعراب بأرض مصر، وقد سبقت الإشارة إلى كيفية تعامل أولاد شاهين مع بهائم الإسحاقي وأصحابه.

ومما لاحظه الإسحاقي في مصر واستنكره بشدة؛ انتشار دور الفساد البغاء بها وارتيادها من طرف جميع فئات المجتمع "ومن القبائح المشهورة بمصر والعرر الفاضحة، ديار الفساد التي تمالأ على منكرها الكبير منهم والصغير والباشا والكيخية والوزير، سبة في الإسلام وأي سبة، ما يرضى بها ضب الكلا" [٥٢]، ولعل ذلك ما جعل الإسحاقي يزكي ما قاله العبدري في وصف أهل مصر "وحسبها شرًا أنها جرين لحثالة العباد، ومستقر لمَنْ يسعى في الأرض بالفساد، من أصناف أهل الشقاق والنفاق والعناد والإلحاد، استولى الحسد على قلوبهم واستتر الغش في جيوبهم، فنار الحسد مضرمة في الجوانح، وسم الغش ممزوج في عسل النصائح.."[٥٣]، حيث قال: "نقلته برمته تصديقًا لنهجته في وصف أهل المذكور، إذ رأينا بها أكثر من ما ذكره وأقبح مما سطره، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل".[٥٤]

هكذا تبدو إذن صورة المجتمع المصري كما وصفها الإسحاقي؛ مجتمع حريص على الدنيا ومتاعها، يقترف في سبيل طلبها كل مُحَرَّمٍ من غش وكذب ونفاق وأكل أموال الناس بالباطل وتملق للحكام وغير ذلك، كما أنهم عُرِفُوا بِبُغْضِ المغاربة على وجه الخصوص والحقد عليهم واستحلال أموالهم "رأيناه من غش أهل هذه المدينة وبغضهم للمغاربة واستحلالهم أموالهم"[٥٥]، ولكن يبقى السؤال مطروحًا: **إلى أي حد تعكس هذه الصورة حقيقة المجتمع المصري خلال القرن الثامن عشر؟** أم أن ما وقع للإسحاقي مع أولاد شاهين هو الذي جعل الوجه القاتم من الصورة يبدو مهيمنًا على الجوانب الإيجابية منها؟

٢/٢- فلاحو مصر:

خَصَّ الإسحاقي هذه الفئة الاجتماعية -التي تشكل سواد المجتمع المصري خلال القرن الثامن عشر- بالوصف والتعريف بأوضاعها، حيث لاحظ من سذاجتهم وجهلهم وضعف تدينهم ما يقضى منه العجب، فقد حكى أحد المغاربة المقيمين بالبلد للإسحاقي عن فلاحي مصر من الأخبار ما يثير الاستغراب، وتأكيدا لمقولته سأل أحدهم أمامه قائلاً: "أنت فلاح أو مسلم؟ فقال: فلاح، وذهب لحاله، ثم بعد ذلك جاء فلاح آخر وقدامه رجل من عرب البداوة يقدمه، فنادى المغربي الفلاح حتى التفت إليه فقال له: أنت فلاح أو مسلم؟ فقال: فلاح، ثم قال له: والرجل الذي قدامك؟ قال: مسلم، فقضيت العجب بما رأيت وسمعت!"[٥٦]، وقد علَّقَ الإسحاقي على ما رأى وسمع قائلاً: "ولا شك أن فلاحة مصر بعد أمن الدين لا شعور لهم به".[٥٧] وذكر أن عددًا كبيرًا منهم يمارسون حرفًا مرتبطة بركب الحاج كالجمال والعكام والضوي صاحب المشعل والسقاء وغيرها، حيث يؤجر الواحد منهم نفسه بالركب مقابل بعض الريالات ومأكله ومشربه ذهابًا وإيابًا من مصر إلى مكة ومن مكة إلى مصر، ومما أثار استغرابه طاقة تحملهم الكبيرة وصبرهم على حر الرمضاء والمشي حافيي الأقدام "وما رأيت أصبر منهم على الحفا، رأيت واحدًا من الذين معنا، من مكة إلى مصر ما عمل في رجليه نعلاً، ولا شكا قط ألم الحفا ولا حر الرمضاء".[٥٨] ومن الأمور التي أنكرها عليهم الإسحاقي، بُعدهم عن الدين وتركهم لفروضه الواجبة "وقد سألنا واحدًا منهم بالحجاز من الجمالة الذين معنا: يا فلان مالك لا تصلي؟ فقال: الصلاة التي تكون في غير بلدي ما تنفعني ما تنفع ولدي"،[٥٩] إذن هذه هي وضعية فلاحي مصر خلال القرن الثامن عشر الميلادي؛ سذاجة وجهل بأمور الدين، وصبر وجلد على تعب الدنيا وشقائها.

٣/٢- عادات وتقاليد أهل مصر

(٣/٢) ١- العادات المرتبطة بالمظاهر الاحتفالية:

- الاحتفال بيوم الزفاف:

من الأمور التي استرعت اهتمام الرحالة الإسحاقي وخصَّها بالوصف الدقيق، جانب العادات الاجتماعية التي تميز الشعوب عن بعضها البعض وتشكل الخصوصية الثقافية وتكون الهوية الوطنية، ويعد الاحتفال بيوم الزفاف من أبرز ما يميز المجتمعات العربية والإسلامية عن بعضها البعض، بل تختلف تلك العادات والتقاليد داخل المجتمع الواحد حسب المناطق والجهات.

قدم لنا الإسحاقي من خلال رحلته صورتين متمايزتين للعروس المصرية، الأولى وهي تزف إلى بيت زوجها، والثانية وهي ذاهبة إلى الحمام للاغتسال كما جرت العادة بذلك، فبالنسبة إلى **المشهد الأول** يقول الإسحاقي: "قعدت يومًا بسوق الغورية بدكان رجل من أهل فاس المجاورين قريبًا من الظهر، وإذا بعروس قد أقبلت في شارع السوق تزف إلى زوجها، فاتفق إرسال البصر لجهة ذلك الحس، فإذا أصوات طبول وغيطات ومزامير ودفوف، رجال ونساء، تقدم أهل إلالات ومن ورائهم على أثرهم مملوكات بيض وخدم سود قد أخذن من الزينة ما هو معروف عندهم، وبأثرهن جمع مؤنث سالم من رثاثة الزي غير الملائم وإذا العروس في أثرهن في أحسن زينة، لا يرى شيء منها سوى طرف خفها، وإذا على رأسها علمان منشوران يمسكانهما رجلان حرفتهما ذلك، وإلى جانبي العروس امرأتان تكنفانها شديدتا الاتصال بها، وإذا العروس تمشي مشية مصفد بين الخطوة والخطوة منها هيئة، فقلت لجليسي في الدكان: ومتى تصل هذه لبيت الزوج ؟ فقال لي: ولو بعد العشاء، فقلت له: هلا ركبوها أو حملوها على الرؤوس ؟ فقال: هذه عادة لا سبيل لأحد إلى تخليفها. وأخبرني جليسي هذا أن العروس إذا وصلت إلى الدار ودخلت على الباب، تناولها الزوج من هنالك وشالها إلى بيت زفافها حتى يطرحها على الفرش، يفعل ذلك بعدما ينثر على الحاضرين والحاضرات دراهم يشتغلون بلقطها"،[٦٠] يمكن من خلال هذا النص استخلاص مجموعة من الملاحظات التي أثارها الإسحاقي وهي:

- الملاحظة الأولى، أن العروس تخرج من بيت أبيها وتزف إلى بيت زوجها بعد صلاة الظهر، وهو أمر مخالف لما جرت به العادة عندنا في المغرب أنها تزف ليلاً بعد صلاة العشاء، ولعل التبكير بخروج العروس له ما يفسره، وهو المشية البطيئة التي تسير بها والتي قد تستغرق وقتًا طويلاً للوصول إلى بيت الزوجية.
- الملاحظة الثانية، أن العروس لا يتم إركابها في هذه الرحلة من بيت أبيها إلى بيت زوجها، وإنما تسير على أقدامها حتى تصل، وهذا مخالف أيضًا لعادة المغاربة في إركاب العروس أو حملها.
- الملاحظة الثالثة والأخيرة، هي عندما تصل العروس إلى باب بيت الزوجية يتناولها الزوج ويحملها حتى يضعها على الفراش، وهذا عبء خففه الله عن الأزواج المغاربة، وحتى الإسحاقي استنكر هذه العادة عندما أورد حكاية أحد المغاربة الذي تزوج بامرأة مصرية سمينة، فلم يقدر على حملها لضعفه وهزالة بدنه "فحار في أمره ساعة حتى افتدى بشيء أعطاه للنكافات، فهذه كلفة ما أنزل الله بها من سلطان! ولا خير في العادات ما لم توافق حال السادات".[٦١]
- الملاحظة الرابعة، أن الزوج قبل أن يحمل عروسه إلى مخدعها، ينثر بعض الدراهم على الحاضرين والحاضرات ليشتغلن بلقطها حتى ينتهي هو من البناء بزوجته، مما يعني أن هؤلاء لا يغادرون بيت الزوج بمجرد الوصول، بل يبقون حتى يتأكدون من عذرية العروس.

أما **المشهد الثاني**، فهو مشهد ذهاب العروس إلى الحمام حيث يقول الإسحاقي: "وفي يوم آخر جازت أخرى ولكنها دون الأولى في الاحتفال، إنما معها النساء والولائد والطبول، فسألت جليسي عنها، فقال لي: هذه ذاهبة للحمام تغسل، فإنها تتهيأ للرواح، ومع هذا فما أحد يبالي بها ولا يعتني بالنظر إليها ولا يتبعها ولا يمشي معها، إلا أهل حرفة الأعراس من الرجال والنساء، والناس كل واحد ساع في حاجاته"[٦٢]، يبدو من خلال هذا الوصف أن الإسحاقي يشفق على هذه العروس التي لا أحد يشاركها فرحتها في الاحتفال استعدادًا ليوم زفافها، ولا أحد يكترث بها ويرفع من معنوياتها، والسبب في ذلك كما قال الإسحاقي هو خفوت درجة الاحتفالية المميزة لموكبها، مما يستنتج منه أن المجتمع المصري، مجتمع يحب إبراز المظاهر الاحتفالية والمبالغة في إشاعتها وإعطائها حجمًا أكثر مما تستحق.

- الاحتفال بليلة المولد النبوي الشريف:

ومن العادات الاجتماعية في مصر التي أثارت انتباه الإسحاقي فخصها بالوصف، عادة الاحتفال بليلة المولد النبوي الشريف، حيث لاحظ الاختلاف الكبير بين طريقة احتفال المصريين وطريقة احتفال المغاربة "فإنه يقع في هذا المشهد [المشهد الحسيني] المبارك من إيقاد المصابيح والشموع والثريات والمشاعيل المختلفات الأشكال والهيئات شيء لا يحده الوصف ويحار فيه الطرف، وتقرأ في تلك الليلة أحزاب وأذكار ودعوات بأصوات شجية، ونغمات ظاهرة وخفية، تخشع لها القلوب القاسية، ولا ينام أحد تلك الليلة، ولا يغلق بها باب درب ولا غيره، ولا يتحرك فيها عسس ولا أصحاب شرطة ولا دور، غير أنهم لا يقرءون هذه الأمداح التي تقرأ عندنا في المغرب ليلة الميلاد المبارك مثل الهمزية والبردة وغيرهما من القصائد المضمنة مدح المصطفى(ﷺ)، وإنما تعظيمهم لهذه الليلة بإيقاد المصابيح في كل شارع وفي كل سوق، يستعدون لذلك قبل ليلة الميلاد بيومين وثلاثة، مع إظهار الفرح والسرور واللعب والطرب، ويقع من هذا التزيين في الأزبكية أضعاف ما يقع في المدينة كلها"[٦٣]، يبدو من خلال هذا الوصف أن المصريين يركزون في إحيائهم لتلك الليلة على المظاهر الاحتفالية من إيقاد المصابيح والشموع والثريات وتزيين المشاهد الدينية واللعب والطرب، أكثر من تركيزهم على الأجواء الروحانية الربانية كما هو الحال عندنا في المغرب، حيث تتخذ هذه الليلة بعدًا صوفيًا وروحيًا محضًا؛ يشتغل الناس فيها بقراءة الأمداح والقصائد المتضمنة مدح الرسول (ﷺ) كقصيدتي البردة والهمزية وغيرهما، كما يتضح من خلال الوصف أن ما يميز تلك الليلة هو انتشار الأمن والطمأنينة والسلام، حيث تظل أبواب المدينة مفتوحة ولا يتم إغلاقها طيلة تلك الليلة التي تعتبر بالنسبة لأصحاب الشرطة والعسس ليلة عطلة وفترة راحة من العمل، وهذا دليل على ما لها من مكانة القدسية في نفوس جميع فئات المجتمع حتى الخارجين منهم عن الشرع كاللصوص وقطاع الطرق.

- الاحتفال بكسر النيل:

ومن العادات التي يحرص المصريون على الاحتفال بها أيما احتفال، عادة كسر النيل، ومن حسن حظ الإسحاقي أنه تمكن من حضور تلك المشاهد الاحتفالية، فقدم لنا وصفًا تفصيليًا لما يجري بها؛ فمعلوم أن فيضان نهر النيل يكون في فصل الصيف ابتداءً من شهر يونيو، ونظرًا لأهمية ذلك الفيضان بالنسبة لحياة المصريين فإنهم عمدوا إلى قياس زيادته وفق مقاييس دقيقة ومضبوطة، فإذا انتهت الزيادة في المقياس إلى الحد الذي يضمن فيه خراج السلطان وهو ستة عشر ذراعًا، كسروا النيل أي أزالوا السد الذي يحبس الماء، فيندفع النهر اندفاعة واحدة "ففي الساعة يرجع كل خليج نهرًا وكل نهر بحرًا"[٦٤]، ويذكر الإسحاقي أن من عادتهم حين يبدأ منسوب الماء في الارتفاع بالنيل، خروج المنادون إلى الشوارع والأسواق حاملين البشرى إلى الأهالي، ومعلنين عن حجم الزيادة أولا بأول "فإذا عزم والي البلد وأهل العسكر على كسره، ركب الباشا في جنده وركبت السناجق كلها، واحتفل الجيش بإظهار العدة وأنواع السلاح والملابس الفاخرة، وأخرجوا معهم الطبول والغيطات وسائر الرعادات، وخرجت المدافع، ولا يبقى أحد إلا خرج ودَبَّ ودرج، حتى النساء والصبيان"[٦٥]، ويصطحبون معهم الحفارين الذين يزيلون السد" وعادتهم في الذين يحفرون السد عامًا بعام، عام يحفره أهل الذمة وعام يحفره المسلمون الفلاحة لأنهم المعدون للأعمال الشاقة عندهم"[٦٦]، وعند الانتهاء من حفر ذلك السد تطلق المدافع طلاقتها إيذانًا بانتهاء الاحتفال، فيرجع الناس كل إلى داره وحال سبيله. ويذكر الإسحاقي أن من عادة المصريين اتخاذ يوم كسر النيل يومًا للخروج في النزهات والترويح عن النفس بمشاهدة مظاهر الاحتفال والفرح.

- الاحتفال بالمحمل المصري:

وفي سياق الحديث عن العادات الاحتفالية بمصر، لا تفوتنا الإشارة إلى عادة الاحتفال بالمحمل المصري الذي تحمل عليه كسوة الكعبة المشرفة، وهي إمارة مهيجة للحج ومشوقة إليه، إلى جانب ما فيها من استعراض للقوة إرهابًا للأعراب قطاع الطرق، ولكن للأسف لم يتمكن الإسحاقي من مشاهدة تلك المظاهر الاحتفالية ونقل صورتها إلينا، حيث تزامن دخولهم لمصر -يوم الخميس ١٩ شوال ١١٤٣ هـ- مع الاحتفال بإدارة المحمل فلم يتمكن من مشاهدته، لأنه تأخر حتى دخل مع موكب الأميرة خناثة، إلا أن ذلك لم يثن الإسحاقي عن وصف مظاهر الاحتفال بدخول المحمل إلى البنادر الكبار التي تجتمع بها الأعراب كبندر الميلح والينبع، حيث يتوقف الركب المصري قبل دخولها ويأمر أميره بتزين المحمل والجمل الذي يحمله استعدادًا لدخولها، فيحتفل الجند بذلك"، ولعبوا قدام المحمل

بالبارود، ومرادهم بذلك الاحتفال في مثل هذا الموطن إظهار القوة للأعراب أهل البدو، وبما يشاهدونه من آلات الحرب، والحرب خدعة".[٦٧]

- الترهات والملهيات:

من الترهات والمُلهيات التي اجتذبت نظر الإسحاقي في القاهرة، الإنسان المسمى عندهم بـ "بولهوان راكبًا على حبال ربطها على أعواد وهو يمشي عليها بالقباقب في الهواء"[٦٨]، الأمر الذي أثار استغرابه واندهاشه من قدرة الرجل على فعل مثل ذلك، معتبرًا إياه من عجائب مصر الغريبة. ومن عجائبهم أيضًا وملاهيهم، اللعب بالقرود "يُلْبِسُ القرَّاد القرد طربوشًا ويسروله ويلعب به كيف شاء من أنواع الملاهي، وحكاية أفعال الناس وحركاتهم من قيام وقعود واضطجاع ومشية"[٦٩]، ولا يقتصر الأمر على القرود فحسب، بل يشمل باقي أسرة الحيوانات من كلاب وحمير وماعز وغيرها، فقد أصبح الأمر يتعلق بحرف ومهن مهيكلة يسترزق منها" وكل ذلك منهم حرصًا على الدرهم الذي هم في تحصيله في غم وهم".[٧٠]

(٣/٢) ٢- العادات الاستهلاكية:

- شرب القهوة أو البن:

ومن العادات الاستهلاكية في مصر وسائر البلاد المشرقية، شرب القهوة أو البن، حيث تنتشر وكالاتها في كل الأحياء "مبنية على هيئة مخصوصة لها مصاطب ودكاكين، وهي مفروشة كلها بالحصر الجيدة والزرابي، والناس آخذون مجالسهم بسكينة ووقار"[٧١]، منهم مَنْ يقتصر على القهوة، ومنهم مَنْ يشرب الخمر في وضح النهار لا يخشى لومة لائم، فالمقهى عندهم مكان له حرمته و قدسيته " فإذا هرب إليها صاحب جناية أَمِنَ، وتتأكد حرمتها بحرمة صاحبها المنسوبة إليه، والمسجد إذا هرب إليه أحد أخرج منه ولا بد !"[٧٢] وتجدها غاصة بالناس عامرة حتى في أوقات الصلاة. وأصبحت القهوة عند المصريين جزء من تقاليد الضيافة والكرم، ففنجانها أول ما يقدم للضيوف، وينفقون عليها من المال الشيء الكثير، ويسمونها أيضًا بالشاذلية، حيث يزعمون أن الشاذلي هو الذي جاء بها من اليمن وأدخلها مصر وبلاد الحجاز، لذلك فهم يعتقدون في بركتها ومنفعتها. ومن الأمور التي أثارها الإسحاقي عند حديثه عن القهوة مسألة حكمها الشرعي حيث قال: "وقد اضطرب فيها كلام الفقهاء المتأخرين أيضًا بالإجازة والتحريم، أما شربها على هيئة شرب الخمر بالعُودِ والرباب وحضور النساء والولدان، فلا يتوقف في تحريمها، بل اللبن إذا شرب على هذه الهيئة يحرم ولا بد".[٧٣]

- شرب الدخان:

ولم تكن مجالس شرب القهوة لتأخذ بهجتها ويكتمل أُنْسُهَا إلا بشرب الدخان الذي يسمى عندهم بتابغا "فلا بأس به عندهم، القاضي بدواته على نابه والعدل قدامه كذلك وربما طرحه على كتب إن كانت حذاءه"[٧٤]، ويورد الإسحاقي حكاية أحد المغاربة الحجاج، الذي جلس مع بعض الأتراك يشربون القهوة والدخان، فعرضوهما عليه، فاعتذر لهم بكون شربهما ليس من عادتنا نحن المغاربة، فردوا عليه مستهزئين به قائلين: "ما تشرب قهوة ولا دخان، ما أنت بإنسان!"،[٧٥] فشُرب القهوة والدخان بهذه البلاد المشرقية أضحت من الأمور المتعارف عليها، وعدم شربهما أصبح من الأمور المنكرة التي يستغرب لها. وكما هو الشأن بالنسبة للقهوى، فقد حاول الإسحاقي الوقوف على الحكم الشرعي في مسألة الدخان، إلا أنه لم يجد ما يستند عليه في ذلك لأن المسألة "مختلف فيها بين المالكية المتأخرين لأنها حادثة الاستعمال، فمن مجيز ومحرم"،[٧٦] ورغم ذلك فقد عبر عن رأيه فيها معتبرًا إياها من خوارم المروءة التي تخدش الحياء كما يستشف من كلامه "والمشارقة مطبقون على استعمالها دون احتشام".[٧٧]

٤/٢- الأوضاع الدينية والثقافية والعلمية في مصر:

(٤/٢) ١- الأوضاع الدينية

ومن الغرائب التي رآها الإسحاقي في مصر، تضييع المساجد والجوامع وإهمالها "وقلة التحفظ فيها حتى تصير مثل المزابل، وَتَسْوَدَّ حُصُرُهَا وحيطانها من الأوساخ، وقد صليت الجمعة في بعض جوامعها، فرأيت فيه أكوامًا من أنواع الكناسات، وهم يعتقدون نجاسة مساجدهم وجوامعهم، وهي كذلك فلا يأتي من مصليهم شخص إلا بحصير أو ثوب يصلي عليه، وقد رأيتهم يفرشون في المحراب ما يصلي عليه الإمام، فما أكثر جفائهم وأقل من الله حياءهم!".[٧٨]

وبعد تأمل وتدبر في أحوال الدين في البلاد المشرقية، خلص الإسحاقي إلى حقيقة مفادها: "وليتحقق المتحقق ويعتقد الصحيح الاعتقاد أنه لا إسلام إلا ببلاد المغرب، لأنهم على جادة واضحة لا بنيات لها، وما سوى ذلك مما بهذه الجهات المشرقية، فأهواء متشعبة وبدع وفرق ضالة وشيع إلا من عصمه الله من أهلها، أما أهل المغرب فعلى مذهب الإمام مالك في الفروع وعلى مذهب أبي الحسن الأشعري في الاعتقادات، سالمين من الشبهات والنزغات والتشيعات والنزوات، وعلم علمائه سالم من التخليط والتدليس، رواية صريحة ودراية صحيحة، كل عالم منهم فيهما رئيس، يشاركون في العلوم كلها فقهًا وحديثًا وأصولاً وتفسيرًا وإعرابًا وغير ذلك".[٧٩] إن هذه الوحدة المذهبية والعقدية المتمثلة في اتباع مذهب الإمام مالك في الفروع ومذهب أبي الحسن الأشعري في الاعتقاد، التي تميز المغرب، هي التي وقته وجنبته الفتن والنزاعات الطائفية والمذهبية التي تعج بها البلاد المشرقية.

(٤/٢) ٢- اهتمام المصريين بالتصوف:

حاول الإسحاقي -من خلال رحلته- أن يرصد لنا بعض مظاهر الحياة الصوفية وما يميزها من طقوس روحانية ربانية في مصر القاهرة ونقل صورتها إلينا، فإلى جانب حرصه على التعريف

بالمزارات والمشاهد العظيمة بالقرافة مما يلي جبل المقطم، حيث يرقد العديد من الصحابة والتابعين وأئمة العلماء والفقهاء والصالحين، نجده لا يتخلف عن موعد حضور مجالس الذكر والحضرة. فإلى جانب حضوره -بمعية الأمير سيدي محمد- مقعد الشيخ أحمد البكري صاحب السجادة، حضر الإسحاقي بالمشهد الحسيني مجلسًا آخر للذكر والحضرة عقده فقراء الشيخ أبي صالح الشناوي بعد صلاة العصر من يوم الجمعة الخامس من ربيع الأول، فقدم لنا وصفًا رائعًا للأجواء الروحانية التي ميزت هذا المجلس؛ حيث افتتح أحد الفقراء بتلاوة آية من الذكر الحكيم، ثم شرع في الصلاة والسلام على النبي المصطفى (ﷺ)، ليبدؤوا بعد ذلك في الهيللة "لا إله إلا الله" مدة ساعة من الزمن، ثم أخذوا في ذكر الاسم مجردًا "الله، الله" لمدة ساعة أخرى، وأتبع ذلك بإنشاد أبيات من قصيدة البردة للإمام البصيري، فتلاوة آية من القرآن الكريم، ثم العودة إلى ذكر اسم الجلالة بصيغة أخرى، وعند اقتراب موعد آذان المغرب، ختموا المجلس بقراءة سورة الفاتحة.[٨٠]

(٤/٢) ٣- الأوضاع الثقافية والعلمية:

يعتبر طلب العلم ولقاء العلماء والجلوس إلى حلقاتهم، والاستفادة منهم دراية ورواية، من أبرز الدوافع المحركة للرحلة الحجازية، التي لم تكن لتنفصل عن الهدف العلمي الذي يسعى كل عالم لتحقيقه أينما حل وارتحل[٨١]، فالإسحاقي كان شديد الحرص على لقاء العلماء والفقهاء في مختلف القرى والمدن التي يمر منها الركب لعله يلقى ما يشفي الغليل ويبرئ العليل، إلا أنه في كل مرة كان يصطدم بحقيقة مفادها: "وبالجملة فالعلم بالبلاد المشرقية كغيرها، قد وقف على ثنية الوداع وهمَّ مُزْنُهُ بالإقلاع" [٨٢]، مستحضرًا قول شيخه أبي علي الحسن اليوسي: "ما بقي بالبلاد المشرقية من تشد إليه الرحال في طلب العلم".[٨٣]

وفي مصر منبع العلم وقبلة العلماء، كان للإسحاقي وقفة متأنية على أحوال العلم والثقافة بأرض الكنانة، فقد تمكن من حضور العديد من حلقات الدرس التي تلقى بالجامع الأزهر، والتواصل مع الكثير من العلماء والفقهاء، ومعرفة طبيعة الدروس التي يتعاطونها، فلاحظ حركة دائبة ونشاطًا كبيرًا "والجامع المذكور لا يزال غاصًا بالناس ليلاً ونهارًا ما بين قارئ ومطالع لكتاب ومصل وذاكر كأنما هو سوق عامرة، والمجالس الدَّرْسِيَّة به متظافرة متزاحمة، ظَهْرُ هذه الحلقة لظهر هذه، وأكثر ما يتعاطونه في هذه الدروس الفقه على مذهب مالك وأبي حنيفة والشافعي، وأما مذهب الإمام أحمد فما له هنالك ذكر، والحنفية يعتمدون كتاب الإمام الديلعي، والنحو يدرسون ألفية بن مالك ويقرأون عليها شرح الشميني، ولهم بهذا الكتاب اعتناء كبير حتى كأن لم يؤلف في العربية غيره أوله شفوق على غيره".[٨٤] كما لاحظ الإسحاقي انكباب المصريين على دراسة علم المنطق وانشغالهم به عن المعقول والمنقول، فأنكر عليهم ذلك تمام الإنكار[٨٥]، وعاب عليهم اتخاذهم العلم وسيلة للتسول والاسترزاق "ومن أعجب الملق والطمع الذي وصفهم به صاحب الرحلة المذكورة [العبدري]، ما شهدته من بعض من ينتحل العلم منهم، قصدونا - إذ سمعوا بخبرنا أننا من جملة كتاب السلطنة بالمغرب عمره الله بوجود مولانا نصره الله - مادين أيدي القانعين والمعترين، فرضخنا لهم على قدر الميسور".[٨٦]

ومن المسائل الفقهية التي أثارها الإسحاقي عند حضوره بعض مجالس الدرس بالجامع الأزهر، مسألة البغي إذا تابت من بغائها، هل تتصدق بما قبضت من المهر قياسًا على ثمن الخمر أو ترده لأربابه إن علموا قياسًا على ثمن أم الولد ؟ وهي مسألة أجرها الإسحاقي مع أحد فقهاء الأزهر المتخصصين في تدريس الفقه، فأجابه الفقيه قائلاً: "وحمله على مسألة الخمر أولى"، فعقب عليه الإسحاقي قائلاً له: "ما وجه الأولوية؟"، فعجز الفقيه عن الرد مؤثرًا السكوت، فأجاب الإسحاقي قائلاً: "لعل وجه الأولوية أن الخمر متفق على تحريمه والزنى متفق على تحريمه، وبيع أم الولد مالك بنفسه يقول بجواز بيعها في مسائل"، وبدا كأن الفقيه الأزهري أحس بالحرج، فرد قائلاً: "والله يا سيدي إنها كلمة"، والذي استغرب له الإسحاقي هو أن هذه المسألة منصوص عليها في كتاب "شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك "وهو من الكتب التي تحظى باهتمام واعتناء فقهاء الأزهر الشريف ويعتمدونها في تدريس الفقه!.[٨٧]

ومن الأمور التي لاحظها الإسحاقي في مساجد مصر في صلاة الجُمَع، اقتصار الأئمة -بما فيهم المالكية- في الصلاة على زيادة شيء من القرآن على الفاتحة، وهو السنة عندهم، وأما إكمال السورة يقول الإسحاقي: "فهو مستحب فضيلة، أو سنة خفيفة"، وهوما يخالف العمل عندنا في المغرب الجاري بإكمال السورة وكراهة عدم إكمالها، مستندًا في ذلك على ما ذكره الحطاب الرعيني في كتابه "مواهب الجليل لشرح مختصر خليل".[٨٨]

وللمزيد من الكشف عن ضعف تكوين فقهاء الأزهر الشريف، أورد الإسحاقي لطيفة ذكر فيها قصة ابن أخته العربي بن محمد المكناسي الذي حضر بمعية بعض أصحابه المغاربة مجلس أحد المدرسين المالكيين في الأزهر الشريف، فأراد المدرس أن يداعبهم أو يعبث بهم قائلاً: "لا تجوز الصلاة خلف الفاسي، وقصد التورية في المحدث، وتبسم قال: فقلت له: يا شيخ المالكية يقولون بجواز الصلاة في العَذِرَة، فرفع إلي رأسه وقال: ما أحد من المالكية يقول هذا، قال: فقلت له: والله إنهم لا يقولون به، فسكت وعميت عليهم الأنباء، قال: وبعد ذلك قلت له: يا سيدنا أنت وربَّيت ونحن وربَّينا فإن أبنت أبنا، قال: أو ذاك بذاك ؟ قلت: نعم، قال: ابن لنا فقلت: العَذِرَةُ في اللغة تطلق على الفضلة المعروفة، وتطلق على فناء الدار، ومنه الحديث: «اليَهُودُ أَنْتَنُ النَّاسِ عَذِرَةً»، فإن المراد أفنية دورهم، والعذرة إذا كانت

طاهرة تجوز الصلاة فيها باتفاق المالكية، وما أظن غيرهم يخالف فيه، فضحكوا وعاد الإيراد والمعارضة مضحكة، فهذا مدرس غاب عنه هذا الحرف من اللغة وهو في كتب اللغة!

وفي مجال النحو، حضر الإسحاقي بمعية بن أخته الفقيه العربي بن محمد المكناسي، بجامع الأزهر، مجلس الفقيه السيد علي الحنفي "وهو رأس الطبقة عندهم في علم العربية والمعقول" وطرحوا عليه الإشكال النحوي الذي اختلفوا فيه والمتعلق بالفرق بين ما بُنِيَ من الأسماء المتضمنة معنى الحرف وما لم يُبْنَ منها، كما سألوه عن اسم لا التي لنفي الجنس على سبيل الاستغراق، فعجز الفقيه المصري عن الإجابة وصدهم صدودا بعدما كشفوا لطلبته ضعف تكوينه وقلة حيلته، علما أن هذه المسألة منصوص عليها في شرح الأشموني على ألفية بن مالك التي يزعم أنه أول من أقرأها للطلبة بجامع الأزهر، ويبدو من كلام الإسحاقي عنه منذ أول وهلة رآه واستمع له فيها أنه لم يقتنع به كعالم نحوي متمكن من علمه حيث قال: "حضرنا مجلسه في العربية فرأينا رجلاً ضريرًا ضيق العطن بين اللكن لكنة أهل مصر، يعاني في التقرير شدة، وكل من ألح عليه في البحث رده أوصده".[٨٩]

بعدما صال وجال في مجالس العلم والدرس في مصر، خلص الإسحاقي إلى نتيجة مفادها: "وحضرنا مجالس بالجامع المذكور، فما رأينا ما يشفي الغليل ولا ما يبرئ العليل، والأمر في ذلك قريب، داخل في قول حبيب: "لا أنت أنت ولا الديار ديار".[٩٠]

فالإسحاقي لم يقتنع البتة بمستوى العلم في الديار المصرية، والدليل على ذلك أنه لم يسأل أيًّا من علمائها وفقهائها الإجازة في فرع من فروع العلوم التي يتقنها، كما فعل في مكة المكرمة، حيث حصل على عدة إجازات في رواية الحديث (كما سبق وأن أشرت إلى ذلك).

خلاصة

إن ما يميز الصورة التي قدمها الإسحاقي عن المجتمع المصري خلال القرن الثامن عشر الميلادي، هو شموليتها لمختلف الجوانب الأخلاقية والسلوكية والدينية والصوفية والعلمية، بالإضافة إلى جانب العادات والتقاليد الشعبية. كما أن طريقة تقديم تلك الصورة غلب عليها طابع الجرأة التي تفتقد إلى لباقة المجاملة وتصل في معظم الأحيان إلى التجريح والتقريع، الأمر الذي يجعلنا نتساءل عن مدى التزام الإسحاقي بحدود المهمة السياسية والدبلوماسية التي كان مكلفا بها من قبل السلطان المولى عبد الله والتي كانت تستهدف حشد الدعم والتأييد في معركة البحث عن الشرعية في الحكم؟ أم أن عواطفه ورغبته الجامحة في نقل الأمور على طبيعتها، والتعبير عن الرأي بكل صراحة وجرأة، جعله يخرج من صفته الرسمية كوزير وكاتب رسمي إلى صفته غير الرسمية كفقيه وعالم لا يخشى في قول الحق لومة لائم، فاستطاع التخلص من كل القيود البروتوكولية، وانطلق بكل حرية في رصد وانتقاد ما يشاهده.

الهَوامِشُ:

(١) عبد الله المرابط الترغي: **حركة الأدب في المغرب على عهد المولى إسماعيل (١٠٨٢ – ١١٣٩ هـ) دراسة في المكونات والاتجاهات**، أطروحة لنيل دكتوراه الدولة في الدب العربي، جامعة عبد الملك السعدي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بتطوان، نوقشت سنة ١٩٩٢م، غير منشورة، ج٥، ص١٥٢١.

(٢) مصطفى الغاشي: **الرحلة المغربية والشرق العثماني: محاولة في بناء الصورة**، الانتشار العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠١٥، ص٢٠٥ – ٢٠٦.

(٣) عبد النبي ذاكر: **المغرب وأوروبا: نظرات متقاطعة**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بأكادير، ط ٢، فاس، ٢٠٠٧، ص١٣.

(٤) عبد النبي ذاكر: المرجع نفسه، ص١٤.

(٥) محمد بن الطيب القادري: **نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني**، تحقيق محمد حجي وأحمد التوفيق، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مكتبة الطالب، الرباط، ١٩٨٦، ج٤، ص٢٠٨.

(٦) عبد السلام بن سودة: **دليل مؤرخ المغرب الأقصى ويليه ذيل دليل مؤرخ المغرب الأقصى**، ضبط واستدراك مكتب البحوث والدراسات في دار الفكر، بيروت، ط ١، ١٩٩٧، ص٢٣٧.

(٧) انظر: عبد الرحمان بن زيدان: **المنزع اللطيف في مفاخر المولى إسماعيل بن الشريف**، تحقيق عبد الهادي التازي، مطبعة إديال، الدار البيضاء، ١٩٩٣، ص٢٣٣ - ٢٣٤. **إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس**، ط٢، ١٩٩٠، ج٥، ص٣٣٠ - ٣٣١.

(٨) **رحلة الوزير الإسحاقي الحجازية لأبي محمد سيدي الشرقي بن محمد الإسحاقي** (ت . بعد ١١٥٠ هـ)، دراسة وتحقيق محمد البغيال، أطروحة لنيل درجة الدكتوراه، بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بتطوان، نوقشت سنة ٢٠١٤، ص١٧٧.

(٩) **الرحلة**، ص١٧٦.

(١٠) راجع **الرحلة**، ص٤٤١ - ٤٤٥.

(١١) **الرحلة**، ص٤٤٦.

(١٢) **الرحلة**، ص ٤٤٧ - ٤٤٨.

(١٣) عن أحداث وقعة جبل فازار يُنظر: أحمد بن خالد الناصري : **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، تحقيق وتعليق جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، ١٩٩٧، ج ٧، المجلد ٣، ص٧٨ - ٨٧.

(١٤) انظر: عبد الهادي التازي: **أمير مغربي في طرابلس أو ليبيا من خلال رحلة الوزير الإسحاقي**، مطبعة فضالة، المحمدية، د . ت، ص ١٠٣.

(١٥) **الرحلة**، ص ٢٤٥ - ٢٤٦ - ٢٨٧.

(١٦) **الرحلة**، ص ٢٤٦.

(١٧) **الرحلة**، ص ٤٤١.

(١٨) **الرحلة**، ص٤٤٣ - ٤٤٤ - ٤٤٥.

(١٩) **الرحلة**، ص ٤٤٧.

(٢٠) **الرحلة**، ص ١٨٨.

(٢١) **الرحلة**، ص ٤٠٧ - ٤٠٩.

(٢٢) **الرحلة**، ص ٣٣٧.

(٢٣) **الرحلة**، ص ٢١٤.

(٢٤) **الرحلة**، ص ٢٧٤.

(٢٥) **الرحلة**، ص ٣٥٨.

(٢٦) **الرحلة**، ص ٤٤٠ - ٤٤١.
(٢٧) **الرحلة**، ص ٤٤٨ - ٤٥٠.
(٢٨) **الرحلة**، ص ٥١٤ - ٥١٥.
(٢٩) **الرحلة**، ص٥١٧.
(٣٠) **الرحلة**، ص٢٦٩.
(٣١) أبو عبد الله محمد بن خليل بن غلبون الطرابلسي: **تاريخ طرابلس الغرب المسمى التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار**، نشر وتصحيح وتعليق الطاهر أحمد الزواوي الطرابلسي، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٤٩ هـ، ص٩٢ – ٩٤. / التازي: **أمير مغربي** ... ص١٠٧.
(٣٢) ابن غلبون: **التذكار**، ص١٤.
(٣٣) التازي: **أمير مغربي**... ص١٠٧.
(٣٤) عبد الهادي التازي: **جامع القرويين، المسجد والجامعة في مدينة فاس، موسوعة لتاريخها المعماري والفكري**، دار نشر المعرفة، الرباط، ط ٢، ٢٠٠٠، المجلد ٣، ص٧٣٠ - ٧٣١.
(٣٥) **الرحلة**، ص٣٢٤.
(٣٦) **الرحلة**، ص٣٣٧.
(٣٧) محمد بن عبد العزيز الدباغ : الوزير محمد الشرقي الإسحاقي مدون الرحلة التي قامت بها السيدة خناثة بنت بكار وحفيدها سيدي محمد بن عبد الله إلى البقاع المقدسة عام ١١٤٣ هـ، **مجلة دعوة الحق**، العدد (٢٥٥)، مارس ١٩٨٦، ص٩٥.
(٣٨) **الرحلة**، ص٣٦٠.
(٣٩) القادري: م. س، ج٤، ص٢٠٨./ ابن سودة: م . س، ص٢٣٧.
(٤٠) أذكر على سبيل المثال لا الحصر: الدكتور عبد الهادي التازي: **أمير مغربي** ... ص ١٠٧، والأستاذ محمد ماكمان: **الرحلات المغربية (ق ١١ - ١٢ هـ / ١٧ - ١٨ م)** منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة بحوث ودراسات رقم ٧٢، مطبعة الأمنية، الرباط، الطبعة الأولى ٢٠١٤، ص ٢٣٠ - ٢٣١ / **معلمة المغرب**، ج٢، ص٤٠٢، والدكتور مصطفى الغاشي: **الرحلة المغربية والشرق العثماني**، ص٢٠٢.
(٤١) ابن زيدان: **المنزع اللطيف**، ص٢٣٣.
(٤٢) انظر وثيقة التحبيس، ص١٧٦.
(٤٣) **الرحلة**، ص٣٣٩.
(٤٤) **الرحلة**، ص٣٤٠.
(٤٥) **الرحلة**، ص٣٤١.
(٤٦) **الرحلة**، ص٣٤٢.
(٤٧) **الرحلة**، ص٣٤٢.
(٤٨) **الرحلة**، ص٣٤٢.
(٤٩) **الرحلة**، ص٣٥٥.
(٥٠) **الرحلة**، ص٣٥٥.
(٥١) **الرحلة**، ص٣٤١.
(٥٢) **الرحلة**، ص٣٤٧.
(٥٣) **الرحلة**، ص٣٤٨.
(٥٤) **الرحلة**، ص٣٥٤.
(٥٥) **الرحلة**، ص٣٤٠.
(٥٦) **الرحلة**، ص٣٤٧.
(٥٧) نفسه.
(٥٨) **الرحلة**، ص٣٤٧.
(٥٩) **الرحلة**، ص٣٤٧.
(٦٠) **الرحلة**، ص٣٤٥ - ٣٤٦.
(٦١) **الرحلة**، ص٣٤٦.
(٦٢) **الرحلة**، ص٣٤٦.
(٦٣) **الرحلة**، ص٣٢٥- ٣٢٦.
(٦٤) **الرحلة**، ص٣٣٤.
(٦٥) **الرحلة**، ص٣٣٣.
(٦٦) **الرحلة**، ص٣٣٤.
(٦٧) **الرحلة**، ص٣٨١.
(٦٨) **الرحلة**، ص٣٤٥.
(٦٩) **الرحلة**، ص٣٤٥.
(٧٠) نفسه.
(٧١) **الرحلة**، ص ٣٤٣.
(٧٢) نفسه.
(٧٣) **الرحلة**، ص٣٤٤.
(٧٤) **الرحلة**، ص٣٤٢.
(٧٥) **الرحلة**، ص٣٤٤.
(٧٦) **الرحلة**، ص٣٤٣.
(٧٧) نفسه.
(٧٨) **الرحلة**، ص٣٤٩ - ٣٥٠.
(٧٩) **الرحلة**، ص٤١٤ - ٤١٥.
(٨٠) **الرحلة**، ص٣٣٠ - ٣٣١.
(٨١) محمد الحجوي: **الأهداف الدينية والعلمية لرحلة علماء الغرب الإسلامي إلى المشرق**، مجلة المناهل، السنة ٣٠، العدد (٨٥)، نونبر ٢٠٠٨، ص٢١٣.
(٨٢) **الرحلة**، ص٣٣٧.
(٨٣) نفسه.
(٨٤) **الرحلة**، ص٣٣٤ - ٣٣٥.
(٨٥) **الرحلة**، ص٣٥١ - ٣٥٤.
(٨٦) **الرحلة**، ص٣٥٤ - ٣٥٥.
(٨٧) حول هذه المسألة انظر: **الرحلة**، ص٣٣٨ - ٣٣٩.
(٨٨) **الرحلة**، ص٣٥٧.
(٨٩) **الرحلة**، ص ٣٣٥.
(٩٠) **الرحلة**، ص٣٣٦ - ٣٣٧.